خير الهدي هدي المصطفى ﷺ

٧

ما أكرم الكريم سبحانه

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في صحيحِ البُخارِيِّ وغيرِهِ: عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ:

«كُلُّ سُلامَى من النَّاسِ عَليهِ صَدقةٌ، كُلُّ يومٍ تطلعُ فيهِ الشَّمسُ، تَعدلُ بينَ اثنينِ صدقةٌ، وتُعينُ الرَّجلَ في دابَّتِهِ فتحمِلُه عَليها أو تَرفعُ لهُ علَيها متَاعَهُ صَدَقةٌ، والكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدقةٌ، وبكُلِّ خُطوةٍ تمشِيها إلى الصَّلاةِ صَدقةٌ، وتَميطُ الأذَى عن الطَّريقِ صَدَقةٌ».

في هذهِ اللَّيلةِ المباركةِ لَيلةِ الجُمعةِ، اتَّفقَ أفرادُ العائلةِ عَلى أنْ يذهبُوا إلى المسجدِ الأُمويِّ، فيقضُوا فيهِ الفترةَ الزَّمنيَّةَ المقدَّرةَ، بينَ المغربِ والعِشاءِ، ثُمَّ يخرجُوا إلى الحيِّ

الشَّـرقـيِّ مـنَ المـدينـةِ ، فيـزُوروا العـمَّ (أبا نورس) وذَلكَ بهدفِ الاطمئنانِ على صِحَّتِه وعَافيتِه.

وبالفعلِ انْطلقُوا في سيَّارتِهمْ إلى المَسْجدِ الأُمَويِّ.

ولمَّـا دخَلُـوهُ صَلَّـوا للهِ ركعتَـي تحيَّـةِ المَسجدِ.

ثُمَّ أدَّوا صَلاةَ المَغرِبِ جماعةً ورَاءَ الإمامِ.

ثُمَّ التفتَ الإمامُ نَحْو المُصلِّينَ وبدَأ دَرسَهُ قائِلاً: إنَّ من كَرمِ اللهِ تعالَى وفَضْلِهِ علَى عِبادِهِ أنْ خلقَهُم في أحسنِ تقويمٍ ، ومنَّ علَيهِم بالنِّعمِ الظَّاهرةِ والبَاطِنةِ ، قالَ اللهُ تَعالَى:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

وذَكرَ بعضَ نِعمهِ عَليهم فَقالَ تَعالَى:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾

[البلد: ٨ ـ ٩].

لكنَّ مُشكلةَ الإنسانِ، أنَّه وَهُوَ في زحمةِ الحَياةِ الدُّنيا، ولِكثرةِ ما يألفُ نِعمَ اللهِ، ينسَى أنْ يتوقَّفَ ولَو لحظةً أمامَ هَذا الكَمِّ الهائلِ مِنَ النِّعمِ!

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾

ويُروى أنَّ رجُلاً شَكا إلى الإمامِ يُونسَ بن عُبيدٍ ضِيقَ الحالِ، وكثرةَ العِيالِ.

فقالَ لهُ يُونسُ: أَيسُرُّكَ أنَّ لكَ بِبصرِكَ هَذا الَّذي تُبصِرُ بِهِ مِئةَ ألفِ دِرْهَمٍ؟

قالَ الرجلُ: لا.

قالَ: فبِيدِكَ مئةُ ألفِ دِرهمٍ؟

قالَ: لاَ.

قالَ: فبِرِجْلَيْكَ؟

قالَ: لاَ.

فقالَ يُونسُ: أرَى عِندكَ آلافاً مِنَ الدَّراهِمِ، وأنتَ تَشكُو الحاجَةَ؟!

ولذلكَ إذا شاءَ اللهُ تَعالى أنْ يُحاسبَ النَّاسَ عَلى نِعَمهِ عَليهم لكانَ أمراً عَجَباً!

فَفي الحَديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ:

«منْ قالَ: لا إله إلاَّ اللهُ، كَانَ لهُ بَهَا عهدٌ عِندَ اللهِ، ومنْ قالَ سُبحانَ اللهِ وبِحمدِهِ، كُتِبَ لهُ بِها مئةُ ألفِ حسنةٍ وأربعةٌ وعُشرونَ ألفَ حَسنةٍ».

فقـــالَ رجـــلٌ: كيـــفَ نَهلِـــكُ بعـــدَ هَـــذا يا رسولَ اللهِ؟

قالَ: «إنَّ الرَّجلَ لَيأتيَ يومَ القِيامةِ بالعملِ، لَوْ وُضِعَ عَلى جبلٍ لأثقلَهُ، فتقومُ النِّعمةُ مِنْ نِعَمِ اللهِ، فتكادُ أن تَستنفدَ ذلكَ كُلَّهُ، إلاَّ أنْ يتطاوَلَ اللهُ بِرحمَتِهِ».

وجاءَ في كُتبِ الأحاديثِ الشَّريفةِ قولُ رَسُولِ الله ﷺ:

«أنَّ جبريلَ أخبرَهُ: أنَّ عابِداً عَبدَ اللهَ عَلَى رأسِ جبلٍ في البَحرِ خَمسمئةِ سنَةٍ، ثُمَّ سألَ ربَّهُ أنْ يَقْبِضَهُ وهُو ساجدٌ، قالَ: فنحنُ نَمرُّ عليهِ إذا هَبطْنَا، وإذَا عَرجْنَا، ونَجدُ في العِلمِ أنَّهُ يُبعثُ يومَ القِيامةِ، فيُوقفُ بينَ يَديِّ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: أدْخِلُوا عَبدِي الجنَّةَ برحمتِي ، فيقولُ العبدُ: يا ربِّ بِعملِي ، ثلاثَ مرَّاتٍ.

ثُمَّ يقولُ اللهُ للمَلائكةِ: قَايِسُوا عَبدِي بِنعْمَتِي علَيهِ وبِعملِه ، فَيَجِدُونَ نِعمةَ البَصرِ قَدْ أحاطَتْ بعبادةِ خَمسمئةِ سنةٍ ، وبقيتْ نِعَمُ الجَسدِ لهُ.

فيقولُ: أَدْخِلُوا عَبدِي النَّارَ ، فيُجَرُّ إلى النَّارِ.

فينادِي ربَّهُ: بِرحمتِكَ أدْخِلْنِي الجنَّةَ ، بِرحْمَتِكَ أدْخِلني الجنَّةَ ، فَيُدْخِلَهُ الجنَّةَ.

قالَ جِبْرائيلُ: إنَّما الأشياءُ بِرحمةِ اللهِ يَا مُحمَّد».

كيفَ نُقابِلُ نِعَمَ اللهِ تَعالى؟!

يَا أحِبَّتِي ـ تابَعَ الشَّيخُ قولَهُ ـ: ولِذلكَ فَما عَلينَا إلاَّ أنْ نُقابِل نِعَمَ اللهِ الَّتِي لا تُحصَى ولا تُعدُّ بالشُّكرِ لَهُ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، ثُمَّ نَستخدِمَ ذلكَ كُلَّهُ في سُبلِ الخيرِ والحلالِ.

وقدْ أرشَدَنَا الرَّسُولُ ﷺ إلى ذلكَ، كَما في قولِهِ:

«منْ قَالَ حينَ يُصبِحُ:

اللَّهمَّ مَا أصبحَ بِي مِن نِعْمةٍ أو بِأحدٍ من خلقِكَ فمنكَ وحدَكَ لا شريكَ لكَ، فلَكَ الحَمْدُ ولكَ الشُّكرُ، فقد أدَّى شُكرَ اليومِ، ومنْ قَالَها حِين يُمسِي، أدَّى شُكْرَ لَيلَتِهِ».

وقدْ وَرَدَ في الأثَر أنَّ مُوسَى عَليهِ السَّلامُ

قالَ في مُناجَاتِهِ للهِ سُبحانَهُ:

يا رَبِّ! كيفَ لِي أنْ أشكُرَكَ وأصغرُ نعمةٍ وضعتَها عِندِي من نِعمِكَ لا يُجازِي بِها عَمِلِي كُلُّهُ؟

قالَ: فأتَاهُ الوحيُ فأخبرَهُ بقولِهِ تَعالَى: يا مُوسَى الآنَ شَكرْتَني.

ما أَكرمَكَ يَا رَبِّ

فَسألَ واحدٌ منَ الحُضورِ: فَماذَا عَن الحَدِيثِ النَّبويِّ الذِي ذَكرتَهُ في أوَّلِ الدَّرسِ يا شَيخُ؟

وماذَا تعنِي السُّلامَى؟

وابتسَمَ الشَّيخُ وقالَ: مُشكِلةُ المتعلِّمينَ الاستطرادُ ، فلنعُدْ إلى مَا بَدأنَا بِهِ ، وجَزَاكَ اللهُ عنَّا كُلَّ خَيرٍ..

السُّلامَى هِي: المِفْصَلُ ، وهِيَ عظْمُ الإصْبعِ.

ورَسولُ اللهِ ﷺ أخَبرَ أنَّ للإنْسانِ (٣٦٠) ثَلاثمئةٍ وستِّينَ عَظْمَاً.

لِذلكَ فَعليهِ أنْ يتصدَّقَ عنْ كُلِّ واحدةٍ مِنها في اليومِ بصدقةٍ وَاحدةٍ!

ثُمَّ فَتحَ الرَّسولُ صلواتُ اللهِ عليهِ البَابَ علَى مِصرَاعيهِ ، ليُبيِّنَ لَنا كَرَمَ اللهِ تَعالَى وفضلَهُ عَلينَا ، فبيَّنَ أنَّ مَنْ لَمْ يَجدْ مَا يتَصدَّقُ بِهِ ، فَلا بَأسَ أنْ يُساعدَ الآخرينَ ، مهمَا كانتِ المساعدةُ حتَّى لَوْ كانتْ في حَمْلِ متاعٍ ، أو مُساعدةِ تَحميلِ بِضاعةٍ على ظهرِ دَابَّةٍ...

فإنْ لَمْ يَجِدْ ذلك كُلَّهُ فعليهِ أنْ يتصدَّقَ عنْ طريقِ أنْ يقول الكلامَ الحسنَ الطَّيِّبَ.

فإنْ لمْ يَجدْ ذلكَ كُلَّهُ ، فعليهِ أنْ يتصدَّقَ عنْ

طريقِ المَشيِ إلىٰ مساجدِ اللهِ ، لأداءِ الصَّلاةِ.

وإنْ لمْ يجِدْ ذَلكَ كُلَّهُ ، فعلَيهِ أن يُميطَ القاذُوراتِ والأذَى عن طُرقاتِ المَارَّةِ!!

وَاعجَباً ممَّنْ يتكبَّرُ!!

ثُمَّ التفتَ الشَّيخُ إلى أحدِ تلامذَتِهِ ، وقالَ لَهُ:

هاتِ يَا أحمدُ ، حدِّثنا عنْ هَذهِ المَسألةِ مِمَّا حَفظتُم أثناءَ الدِّراسةِ في الجَامعِ الأزهرِ بمِصرَ.

فقالَ الشَّابُّ (أحمد):

ورَدَ أنَّ الحسنَ البَصريَّ رحِمهُ اللهُ تَعالَى كانَ يسيرُ معَ بعضِ أصحابِهِ ، فَرَأوا رَجُلاً يَتبختَرُ في مِشيتِهِ.

فقالَ الحسنُ: للهِ في كلِّ عُضوٍ منه نِعمةٌ ،

اللَّهـمَّ لا تَجعلنَـا ممَّـن يَتَقـوَّى بِنعمتِـكَ علَـى مَعْصِيتِكَ..

وهُناكَ أمرٌ آخرُ لَفتَ رسولُ الله ﷺ أنظارنَا إليهِ ، وهُو: أنَّ هُنَاكَ كثيراً من نِعَمِ اللهِ تتطلَّبُ الشُّكرَ العَمليَّ لا القَوليَّ ، مثالُ ذلكَ:

«كانَ رسولُ الله ﷺ يجتهدُ في الصَّلاةِ ، ويقومُ حتَّى تتفطَّرَ قدماهُ ـ أي: تتشقَّقُ ـ فَلمَّا قِيلَ لهُ: لِمَ تفعلُ هَذا وقدْ غَفَرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ من ذنبِكَ ومَا تأخَّرَ؟

قالَ: أفَلا أكونُ عَبدَاً شَكُوراً؟».

وهَكَـذا فـي مسـألـةِ المشْـي إلـى الصَّـلاةِ لحضورِ جماعاتِ المُسلمينَ في المساجدِ ، وكأنَّ المسلمَ يقولُ بلسانِ حالهِ لربِّهِ:

هاأنذَا أشكرُكَ يا ربِّ عَلى نِعمةِ البَصرِ

ونعمةِ الرِّجلينِ ونِعْمةِ الحَركةِ، وذلكَ بأنْ أستخدمَ هذهِ النِّعمَ فيما يُرضيكَ.

كَذلكَ في مسألةِ المشيِ إلى إغاثةِ اللَّهفانِ، أو النَّهيِ عن المُنكرِ، أو الإصلاحِ بينَ النَّاسِ، مِصداقُ ذلكَ قولُ الرَّسولِ ﷺ: «أفضلُ الصَّدقةِ إصلاحُ ذاتِ البينِ».

بلْ إنَّ الإسلامَ يُبيِّنُ ما هُو أدقُّ منْ ذلكَ، فيؤكِّدُ الرَّسولُ ﷺ عَلَى أنَّ هُناك أَعمالاً صغيرةً لا يَهْتَمُّ النَّاسُ بِها، ولا يُلقونَ لها بَالاً، يَكتبُ اللهُ بِها الأَجرَ الكبيرَ.. مثلُ:

أنْ يُفْرِغَ المسلمُ منْ دَلو مائِهِ في دَلْوِ أَخيهِ!
أو أن يُبعِدَ حَجراً أو شَوكاً في طَريقِ المَارَّةِ!

أو أنْ يتبسَّمَ في وجهِ أخيهِ!

أو أنْ يُسلِّمَ عليهِ!

كُلُّ ذلكَ يَكتبُ اللهُ بهِ صَدقةً.

ومعـــروفٌ تِلكـــمُ القِصَّـــةُ التـــي قَـــالَهـــا الرَّسولُ ﷺ: «أنَّ بغيًّا ـ أي: زَانيةً ـ سقتْ كَلباً يلهثُ منَ العطشِ ، فَغُفِرَ لَها».

وسَكتَ الشَّابُّ (أحمد).. وسَكَتَ الجميعُ.. وحينَ رَأوا دُموعَ الشَّيخِ تَسيلُ عَلى لِحيتِهِ البيضاءِ ، ثُمَّ يرفعُ رأسَهُ ليقولَ:

يا أحْبابِي.. مَا أجملَ وَأروعَ التَّعامُلَ معَ اللهِ تَعالى ، فهُو الكريمُ ولا كريمَ سِواهُ ، وهُو الَّذي خَلقَنا منْ عدمٍ.. وهُو الذي أعْطانَا النِّعمَ ، وهُو الذي هَدَانا النَّجدَيْنِ ، وهُو الذي أرْسَلَ لنَا الرُّسُلَ والأنْبِياءَ ، وهُو الذي بَيَّنَ لنَا طُرُقَ الشُّكرِ والخَيرِ.

فإذا شكرنَاهُ باللِّسانِ أو الجِنانِ أو العَملِ ،

غَفرَ لنَا ذُنوبَنا وحطَّ عنَّا سيِّئاتِنا وأبدَلَ لنَا السَّيئاتِ حَسنَاتٍ..

فمَا أكرَمَكَ يا ربَّ العَالمِينَ..

نَسألُ اللهَ تعالَى أنْ يجعلَنا منَ الذَّاكِرينَ الشَّاكرينَ..

وآخِرُ دَعوانَا أن الحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ